المجمع 22 (1447/ 2026)، 1-22

الديستوبيا في الرواية العربيّة السوريّة؛ قراءةٌ في رواية "لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة" لخالد خليفة

أحمد ضراغمة[1]

Dystopia in Contemporary Syrian Fiction: A Reading of Khaled Khalifa's *Lā Sakākīn fī Maṭbakh Haḏih al-Madīnah [No Knives in This City's Kitchens]*

Ahmad Dragma

Abstract

This research unpacks depictions of dystopia (the corrupted city) in contemporary Syrian fiction, focusing on Khaled Khalifa's novel *Lā Sakākīn fī Maṭbakh Haḏih al-Madīnah [No Knives in This City's Kitchens]*. The novel serves as a literary model that reflects the tragic Syrian reality under an authoritarian regime amid a devastating war. It offers a critical lens on the harsh realities of life under dictatorship, as the author, writing from his hometown, Aleppo, portrays the suffering of its inhabitants since the Ba'ath Party's rise to power in 1963. Accordingly, this research seeks to uncover how the novel presents various manifestations of political and social repression, as well as expressions of loss and fear. It also explores the relationship between the ruling party and the people, as the party's use of all means of torture and violence drove citizens to flee the horrors of war through migration and exile.

By analysing the novel's events, characters, and political developments, this paper sheds light on the different forms of dystopia in contemporary Syrian fiction. It assesses the extent to which it succeeds in portraying actual scenes of war and fear. In the Syrian context, fiction is not merely a literary work but also serves as a historical document that records the spread of corruption and its

[1] كلية سخنين.

transformation into a fully realised dystopian space. Indeed, contemporary Syrian fiction reveals a terrifying image of the corruption of power, its institutions, and the media, as well as its relationship with the people who have been subjected to various forms of intimidation, torture, and imprisonment.

Keywords: Syrian fiction, Syrian war, dystopia, dictatorship, human suffering

الملخّص

يتناول هذا البحث حضور الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية السوريّة المعاصرة، من خلال رواية خالد خليفة "لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة"، بوصفها نموذجًا أدبيًّا يعكس الواقع السوريّ المأساويّ تحت سلطة استبداديّة وفي سياق حرب مدمّرة. وباعتبارها أداةً نقديّةً للواقع المرير، الذي يصوّره الكاتب في مدينته حلب، فقد عرض مآسي السكّان منذ استلام حزب البعث الحكم بانقلاب عام 1963 في سوريا. يهدف البحث إلى الكشف عن أساليب عرض الرواية لمظاهر القمع السياسيّ والاجتماعيّ، وتجليّات الفقدان والخوف، إضافةً إلى علاقة الحزب الحاكم بالشعب عبر استخدام كلّ وسائل التعذيب والقوّة ممّا جعل الشعب يهرب من ويلات الحرب من خلال الهجرة واللجوء. عبر تحليل الأحداث، الشخصيّات والتطوّرات السياسيّة، يسعى المقال إلى تسليط الضوء على أشكال الديستوبيا في الرواية السوريّة ومدى نجاحها في استعراض مشاهد الحرب والخوف. تخلُص الدراسة إلى أنّ الرواية لا تقتصر على كونها عملاً أدبيًّا، بل وثيقةً تاريخيَّةً ترصد تفشّي الفساد في المدينة السوريّة وتحوّلها إلى فضاء ديستوبيّ بامتياز. تُبرز النتائج صورة مرعِبة لفساد السلطة، أذرعها، إعلامها، وعلاقتها المتوازية مع الشعب، الذي مورست بحقّه أشكالٌ مختلفةٌ من الترهيب والتعذيب والسجون ومصادرة الحرّيّات.

الكلمات المفتاحيّة:

ديستوبيا، رواية الحرب السوريّة، الواقع المأساويّ، معاناة إنسانيّة، فقدان الحرّيّة، نظام دكتاتوريّ.

مقدِّمة

يدرس هذا البحث ظاهرة الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في أدب الكاتب السوريّ خالد خليفة (ولد 1964)، حيثُ يرتكز على روايته *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة*، باعتبارها أداةً نقديّةً للواقع المرير، الذي يصوّره الكاتب في مدينته حلب، فقد عرض مآسي السكّان منذ استلام حزب البعث الحكم بعد الانقلاب الحاصل عام 1963 في سوريا.

تعرَّضَ الكاتب لهذا الواقع من خلال سرده قصّة أسرة حلبيّة، عاشت حياةً موازيةً مع الحزب الحاكم، فلم يلتقيا عبر قواسم مشتركة، فعانت هذه الأسرة التشرذم والتفكّك والظلم على امتداد أحداث الرواية. يسعى هذا البحث إلى دراسة مركّبات الديستوبيا في رواية خليفة، من خلال التركيز على دور السلطة، الشخصيّات الديستوبيّة، والزمكانيّ الديستوبيّ. بالإضافة إلى ما سبق، نقصد عبر البحث الراهن تحديد الغرض من توظيف الديستوبيا في أعمال روائيّة عربيّة تعاين واقعًا مأساويًّا، كرواية الكاتب السوريّ خالد خليفة *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة* .

يحاول البحث الإجابة عن السؤال التالي :

كيف تجسّدت نظريّة الديستوبيا في رواية خالد خليفة *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة* ؟

ممّا يتأتّى ضمن نتائج البحث، تسليط الضوء على مفهوم الديستوبيا في الأدب العربيّ في غضون الربيع العربيّ. الأمر الذي من شأنه أن يساهم في فهم عمق العلاقة بين الأدب والسياسة، حيث يتأثّر الأدب بالتغيّرات السياسيّة، ممّا يفسح المجال أمام الأدباء للكتابة في مواضيع لم يتمكّنوا من التطرّق إليها قبل بدء الثورات العربيّة. كذلك، يتناول هذا البحث المادة الأدبيّة من وجهة نظر فلسفيّة، اجتماعيّة، سياسيّة وأيدولوجيّة، الأمر الذي يعمّق فهم تأثّر الأدب بالعوامل الخارجيّة والنصّيّة، فضلًا عن فهم تأثير الأدب على دوائر القوى المتصارعة في المجتمع العربيّ عمومًا، وفي سوريا خصوصًا أثناء الثورة والحرب الأهليّة.

تعريف الديستوبيا

يُعرَّف مصطلح الديستوبيا بعديد من الأوجه، لكون هذا المصطلح مرتبطًا بفكرة المكان الفاسد، أصبح تعريفه ذاتيًّا؛ لكلّ كاتب مفهومه الخاصّ للديستوبيا، وغالبًا ما يرتبط تعريف هذا المصطلح بالأدب الخياليّ (Pospisil, 2016, 9). للديستوبيا - اسم مرادف في الأدب العربيّ، وهو "المدينة الفاسدة" أو "الراذلة". ظهرت هذه الظاهرة الأدبيّة في الرواية العالميّة في القرن العشرين، حين أصابت الشعوب الأوروبيّة خيبة من تحقيق المدينة الفاضلة، التي حلم بها المفكّرون والأدباء على مرّ التاريخ (ناظميان، 2019، 160).

مصطلح Dystopia يعني ذلك العالم، الذي ليس فيه شيء كامل، وكلّ شيء يحدث بشكل مغلوط ومخالف للمجتمع المثاليّ. من هنا، فإنّ الأدب الديستوبيّ يعرض للقارئ صورة كابوسيَّة، عمّا يمكن أن يحدث في العالم مستقبلًا. عادةً ما تكون الموضوعات الرئيسيّة لأعمال ديستوبيّة هي التمرّد والاضطهاد والثورات والحروب واكتظاظ السكّان والكوارث، وغيرها من المسائل الّتي تصوّر الواقع المرير للمجتمعات. جديرٌ بالذّكر أنّ مصطلح Utopia (اليوتوبيا) هو المصطلح النقيض للديستوبيا، وهو ذلك العالم المثاليّ، الذي يطمح إليه الإنسان؛ ليعيش بسلام وسعادة. (Richter, 1975, 5-6)

ظهر مصطلح الديستوبيا عام 1868 في خطاب برلمانيّ لجون ستيوارت ميل (John Stuart Mill)، الذي عرّف الديستوبيا بكونها المكان السيّء، المكان الخياليّ الرديء، حيث يسيطر القلق على سكّانه بعد فقدانهم إنسانيّتهم. كذلك، تدلّ الديستوبيا على طبقة مجتمعات افتراضيّة، تحتوي على صور عوالم سيّئة، حيثُ تشير هذه الصور بقلق أَو خوف إلى الطريقة الافتراضيّة التي يسير بها المجتمع من أجل توفير حملة تبشيريّة من أجل التغيير. (Gawad, 2009, 47)

يقول أحمد الحسنى بتعريفه للديستوبيا:

> "إنّ مفهوم الديستوبيا لا يقتصر على اعتباره جنسًا أدبيًّا، وإنّما يعتبر فكرًا فلسفيًّا يحمل الكثير من التوجّهات والآراء". (الحسنى، 2015، 136). والهدف من هذا المصطلح وفق ما ذكره عبده، هو: "كشف الواقع المأساويّ والمظالم والأسباب التي أدّت إلى هذا الواقع، سواء كانت متمثّلةً في شخص أو حِزب أَو فِئة من البشر، تزجُّ بالبشر إلى الهلاك ومسح حقوقهم". (عبده، 2018، 297).

تحمل الديستوبيا في داخلها ملامح الواقع المؤلِم للمجتمع، حيث يظهر فيه تسلُّط القوى المستبّدة بينما يحاول هذا المجتمع جاهِدًا أن يعبّر عن معاناته الأليمة، وسعيه- في بعض الأحيان- إلى تغيير واقعه المزري بأدوات التّعبير والسّخط المختلفة. (Richter, 1975, 5-6)

وصف بواردي العالم اللاطوباويّ على أنّه: "نظامٌ وحشيٌّ، يثير القلق، بنية رأي أو صورة أو نصّ، يقوّض مبادئ النظام المتناغم، التي طوّرتها اليوتوبيا". (بواردي، 2019، 85). الأمر الذي

يبدو عاكسًا لتعريف كريشان Krishan: "إنّ ظهور مصطلح ديستوبيا تزامن مع بداية تفكير الناس باليوتوبيا، ويضيف أنّه لا يمكن أن تتواجد اليوتوبيا لوحدها بدون ديستوبيا، الأصل هو اليوتوبيا، والديستوبيا هي النسخة السوداء منها". (Krishan, 1987, 100-101)

صنّف الجبّاويّ أنواع عناصر الديستوبيا، فمنها ما يتعلّق بالقضايا السياسيّة، أو القضايا الاقتصاديّة، أو حتّى البيئة، وقد وظّفَت الروايات لتسليط الضوء على القضايا الموجودة في العالم الواقعيّ، التي لها علاقة بالمجتمع والسياسة والقيم (جباوي، 2019، 4). إنّ الرؤيا تتشابه في الأدب الديستوبيّ، غير أَنّ الأدب الفرعيّ للديستوبيا يكشف عن أَدب متنوّع. مثال ذلك يبرزُ في الاختلاف الثلاثيّ لجريجوري كلايس (Gregory Claey's) بين الجانب السياسيّ والبيئيّ والتكنولوجيّ للأدب الديستوبيّ. فقد لاحظ أنّ الديستوبيا السياسيّة مرتبطةٌ مع إخفاق الطموحات اليوتوبيّة. كما وظهر نوع جديد من الديستوبيا، وهو ديستوبيا الاستقراء الخارجيّ (الاستنباط)، والذي يعمل على تحديد أمور موجودة في المجتمع، وبعد ذلك يقوم بتوظيف موارد من الأدب الخياليّ؛ من أجل استنباط الحال، الذي يمكن أن يكون عليه المستقبل. (Seeger, 2019, 55)

مختصّون آخرون عرّفوا الديستوبيا على أنّها نظرة تشاؤميَّة إلى المستقبل، تُبنى على محاولة لتقديم نتائج سلبيَّة للواقع الحالي. أمّا روايات اليوتوبيا فهي تعرض مجتمعًا سعيدًا. (Dziekan, 2018, 107)

وتضيف بقول برجكاني (2018) عن الديستوبيا:"ونتيجة للعالم الديستوبيّ الذي عاش فيه الكتّاب والروائيّون، فقد جعلهم يعبرون عن المدينة المنهارة، التي تتمثّل في القبح المعماريّ واستبداد الأنظمة والنظرة السلطويّة السائدة في المجتمع". (برجكاني، 2018، 133)

تدلّ التعريفات السابقة على الارتباط المتماسك بين الديستوبيا واليوتوبيا إلى حدّ انتقال الأدباء، وبسبب خيبة أملهم باليوتوبيا، إلى الديستوبيا. فما هي اليوتوبيا؟ إنّ تاريخ كلمة اليوتوبيا يعود إلى مور (More)، ومصدره الإغريقيّة، حيث تعني يوتوبيا حرفيًّا: "ليست مكانًا، أو اللا مكان، أو المكان الذي لا وجود له في أيّ مكان". استعمل خليل أحمد خليل كلمة "طوبيا

والطوباويّون" بديلًا للاصطلاح يوتوبيا، وهي البلد غير الموجود في الحقيقة، والذي من شأنه أن يكون أفضل بلد في العالم. (باكو، 2008، 16-17)

الرواية الديستوبيّة العربيّة عامّةً والسوريَّة خاصَّةً:

تُعتَبر ظاهرة أدب الديستوبيا، الطابع العامّ، الذي أفرزته الثورات، كردّ فعل لانكسار الثورة، أو الواقع المرير، وهناك من سمّاه بالأدب الكابوسيّ. فالروايات التي ذكرت أعلاه تولّدَت أحداثها في المكان السيّء، ممّا يدفع بالنصوص لتصوير مستقبل مخيف، فتكون الرواية عنيفةً، تكشف الكارثة التي يعيشها الشعب العربيّ، فهي تعرّي الواقع، وتتنبّأ بمستقبل أَفضل. في هذا الصدد، يضيف سيّد محمود، رئيس تحرير جريدة القاهرة الثقافيّة، أنّ الديستوبيا خيار للهروب من النقد السياسيّ للأدباء، الأمر الذي يُستَنتج من قوله: "أَعتقد أنّه كان اختيارًا فنّيًّا أكثر منه خيارًا سياسيًّا، فمن الأمور الإيجابيّة أنّ معظم الكتّاب كانوا منخرطين في دعم خطاب الثورة، وقد ظهرت نصوص ممتازة رصدنا من خلالها تنوّعًا جيليًّا كبيرًا ما بين الشباب وجيل السبعينيّات مثلا". كما ويؤكّد محمود أنّ الديستوبيا هي الطابع الطاغي على المشهد الأدبيّ في مصر، العراق واليمن، كردّ فعل للثورات العربيّة ومآلاتها؛ إذ قد ظهر ذلك عند أحمد سعداوي في *فرانكشتاين في بغداد*، وسنان أنطون في *يا مريم*. (عاصم، 2017، 4).

مع اندلاع الثورة في سوريا، ظهرت كوكبةٌ من الأدباء السوريّين أمثال: خالد خليفة، فوّاز حدّاد، مها حسن، سمر يزبك، منهل السراج، ومصطفى خليفة (عاصم، 2017، 4).

يتأثّر الأدب العربيّ على وجه العموم، والرواية على الوجه الخصوص، بالتغيّرات الاجتماعيّة، حيث يأخذ الكاتب مادّة الرواية من الأحداث الاجتماعيّة والإنسانيّة. للمدينة دور فعّال في الروايات، إذ استخدُمِت في إطار اليوتوبيا قديمًا. لقد سادت الديستوبيا الرواية العربيّة المعاصِرة، ومثال على ذلك رواية أورويل في الضاحية الجنوبيّة للكاتب فوزي ذبيان، والتي يتحدّث فيها عن الظروف الإنسانيّة والحياتيّة في الضاحيّة الجنوبيّة لبيروت. (برجكاني، 2018، 131)

إنّ رواية الديستوبيا العربيّة تشقّ طريقًا خاصًّا منفصِلًا ومتَّصِلًا بالدّيستوبيا الغربيّة، لا ترتمي في أحضان الخيال العلميّ ولا تكتب للتّرفيه، بل تتأسّس على نوع من الالتزام بالواقع السّياسيّ والاجتماعيّ، وتحذّر من خطورة استمراره، حيث نَبَعَت الديستوبيا من عمق الثّورات العربيّة، والتغييرات المتسارعة، التي حيّرت العقل البشريّ. (فرغلي، 2020، 38)

دعم إليكسي بروكا هذا الرأي من منظار الغرب بقوله:" كان من الممكن للأعمال السّرديّة التي تصوّر المدينة الفاسدة أن تختفي مع الأنظمة النّازيّة، والفاشيّة، والشيوعيّة، غير أَنَّ تعاظُم دور التّكنولوجيا المراقبة والتقاط المعطيات، وتزايد المخاطر المناخيّة والبيولوجيّة قدّم لها فرصةً جديدةً للانبعاث من جديد. (بروكا، 2020، 36)

زيادة على ماسبق، فإنّ الشرق الأوسط في العقدين الأخيرين يشهد أحداثًا متسارعةً داميةً، لذلك وجدت الدّيستوبيا مكانًا فيه لتثير الاشمئزاز بسبب الوحشيّة التي يتعرّض لها المواطن العربيّ. الأمر الذي يُعبّر عنه في رواية الديستوبيا بشتّى الوسائل، لاعتبار هذه الحقبة التاريخية ديستوبيا واقعيّة وجدَت كلّ المبررات لاستمرارها مع ما تحتويه من قتل ودمار نتيجة لسياسة غاشمة من حكّام لا يعرفون الرّحمة. (وقاص، 2020، 34) هذا بالضبط ما تشهد عليه سوريا منذ أن اندلعت الثورة فيها عام 2011، فرَغم كلّ الصعوبات والمصاعب التي عانى منها الشعب السوريّ، لم يتوقّف الإبداع السوريّ، بل أصابه نشاط؛ ليكتب تجربته الخاصّة تحت وقع الحرب.

هكذا، فإنّ الأعمال الروائيّة بعد عام 2011 تعتبر الذاكرة الحيّة لما يجري على الأراضي السوريّة، فقد سَجَّلت هذه الروايات وقائع الحرب من قتل وخراب وتشريد، حيثُ ظهر كثيرٌ من الأعمال الروائيّة التصويريّة التي ترصد وتنتقل من حدث لآخر لتكشف أبعاده، إذ سيطر الجانب التوثيقيّ على الأعمال في السنوات الأولى من قيام الثورة السوريّة. ومع مرور السنوات، تغيّرت الموضوعات الروائيّة حتّى أصبحت قريبةً من الرصانة، سعيًا منها إلى نقل الحدث في ضوء المعطيات الراهنة، ناهيك عن ظهور البعد التأمّليّ في هذه الأعمال. (عقيل، 2019، 2)

تبرز حالة التعبير الحرّة ضمن هذا الجانر الأدبيّ، فقد تشجَّعَ الكُتّاب للتعبير عن مآسيهم، التي عايَشوها خلال السنوات الطوال من المنع والمصادرة للحرّيّات العامّة والخاصّة. من جهة أخرى، دخلت الرواية في دوّامة الانفعال وردودها على ما يجري في الثورة السوريّة. (فخري، 2015، 2)

تأثّر الأدباء السوريّون بيوميّات الثورة نتيجة للصراع العسكريّ في سوريا، حيث رسّخوا معالم جديدة وغير مألوفة في الحركة الروائيّة السوريّة؛ لذلك من الطبيعيّ أن تنعكس الثورة في رواياتهم كأيّ حرب في التاريخ ينتج عنها أدب يسمّى "أدب الحرب"، خاصّة أنّ الثورة السوريّة وصلت لدرجة الملحمة المأساويّة التي وصلت إلى جميع بلاد سوريا. وبما أنّ الأدباء عانوا بؤس التشرّد والتعذيب فقد نشروا روايات تصف هذا الواقع الصعب في الخارج، ومن بين هؤلاء الكتّاب واسيني الاعرج الذي كتب رواية *حكاية العربيّ الأخير 2084*، ومحمد سالم في رواية *الجليل والصعلوك*. (منصور، 2023، 4) إلى جانبهم، كتب نائل الطوخي في مصر رواية *نساء الكرنتينا*، وكتب محمّد بديع رواية *عطارد*، وبسمة عبد العزيز ألّفت رواية *الطابور*. في الأردن، قدّم أحمد الزعتريّ روايته *الانحناء على جثة عمّان*، وفيها يطرح الكاتب تصورًا قاتمًا لمستقبل مدينة عَمّان. ووصف الكاتب المصريّ أحمد توفيق في روايته *ممرّ الفئران* تصورًا مستقبليًّا مظلِمًا للشعوب العربيّة منطلقًا من سوداويّة الواقع الراهن. (عقيل، 2019، 6)

في هذا البحث، أتناول دور السلطة السياسيّة في قمع الشعب والمتمثّلة بقوّة بطش الحزب الحاكم، واستفراده بالسلطة ومصادرة الحرّيّات، واصفًا الرعب والتعذيب الذي يمارسه النظام، بالإضافة إلى تحليلي لسلوك الحزبيّين الفاسد، البارز عبر فساد رجال المخابرات، كما سأتناول أساليب تسخير النظام الإعلام الفاسد لتمجيد أفعاله. كلّ ذلك من خلال تحليل نصّيّ لرواية *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة*. تغوص الرواية في عمق المجتمع السوريّ، من خلال حكاية أسرة حلبيّة، يسردها أحد أبنائها، حيثُ يذكر فيها أَنّ المدينة أصبحت مرتعًا للجريمة والفساد، وفيها الكراهية والفقر وغيره. يسرد هذا العمل الأدبيّ تاريخ المدينة المؤلم، وقد أشار خليفة أنّ روايته لا *سكاكين في مطابخ هذه المدينة* تعتبر وثيقةً شاهدةً لوحشيّة النظام، حيث

قال: "رواية *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة* تستحقّ تصنيفها عملًا يتجاوز كونه عملًا أدبيًّا، وحكاية عن عابرين، هي (وثيقة) سيعود إليها الكثيرون عندما يريدون تذكّر ما مرّ بهم، أو يؤرّخون له". (خليفة، 2020، 2)

التعذيب في ظلّ النظام:

إنّ سياسة القمع التي انتهجها النظام السوريّ مع شعبه كانت وحشيةً، حيث استخدُمَت شتّى وسائل التعذيب، وهذا ما يصفه الراوي عن ابن خاله:

> "خالي عبد المنعم لم يعد يرى من الصورة سوى ابنه يحيى، الذي رآه لآخر مرّة جثّةً مسجّاة في مشرحة مشفى الجامعة، محترق الوجه ومن دون أصابع، على جسمه كدمات كابلات كهربائيّة، وشقوق سكاكين متقيّحة لم تندمل بعد[...] ولم يستمع لرجائه الحارّ بالسماح له بتلمّس وجهه" (م.ن، 8) .

في هذا المشهد نشعر بقساوة هذا النظام، الذي يعذّب من يعارضه، ويمنع أهله من تحسّس وجهه، كما لا يسمح لأهل الفقيد أن يشيّعوه بجنازة عاديّة، والأصعب من هذا يُمنَع الأهل من إقامة بيت عزاء، ففي هذه المدينة يُحْرَم الميّت وأهلِهِ من أبسط الحقوق. ما ينتج عن ذلك أنْ تصيب الويلات كلّ من يعارض هذا النظام؛ لأنّه لا يؤمن بحرّيّة التعبير والرأي معتقدًا أنَّ هذه الحرّيّات ستؤدّي إلى سقوطه لكونه ظالمًا مستبِدًّا؛ لذلك يستعمل سياسة التعذيب، لتكون أداةً قمْعِيَّةً لِكلّ مَنْ تُسوِّل له نفسه أنّ يعارض حكمه.

قوّة الحاكم وجبروته ضدّ المواطن

إنّ هيمنة القائد على شعبه في هذه المدينة، تبقى حتّى بعد مماته؛ لذلك يخاف الشعب منه، ولو كان جثّة هامدة. يقول الراوي: "أستقبل نبأ موت الرئيس، أفكّر هل سندفن خوفنا مع جثمانه؟ [...] السائق لم يتوقّف عن الترحّم على الرئيس بصوت بدا لي كاذبًا كأنّه يطرد خوفه". (م.ن، 192)

ومن شدّة خوف المواطن من شخص الرئيس، لا يمكنه تصديق نبأ موته، حيث يقول:

"لم تصدّق بأنّ الرئيس مات كأيّ كائن، رغم مراسم العزاء والحداد الوطنيّ. التلفزيون بثّ صوره وخطاباته القديمة، استضاف مئات من الأشخاص الذين عدّدوا خصاله، وذكروا ألقابه اللامتناهية بخشوع كبير، غصّت عيونهم بالدمع، وهم يذكرون فضائل الأب القائد، قائد الحرب والسلم، حكيم العرب، الرياضيّ الأوّل والمهندس الأوّل.. ويشعرون بغصّة كبيرة؛ لأنّهم لم يقولوا الإله الأوّل. " (خليفة، 2013، 7-8).

لقد استعملت الأمّ الضحايا، وكذلك الطاغية، مشيرة إلى أنّ الرئيس هو قاتل، وقد قتل الكثير من الناس. إنّ البطش يشكّل حالةً من حالات الديستوبيا التي يعمّ فيها الظلم والترهيب، فقد أخذ هذا الأمر مأخذًا عظيمًا من نفوس أفراد المجتمع المتحدَّث عنه وعقولهم، هذه هي بعضُ أركان النظريّة الديستوبيّة.

الولاء أو العقاب:

إنّ فكرة تعيين المعلّمين في هذا البلد، لا تتماشى وفق معايير مهنيّة، وإنّما بمدى ولائك للحزب، وهذا ما حدث مع المعلّم جان، بحث الحزب عن معلّم للفرنسيّة من رجال الحزب، فلم يجدوا أحدًا؛ لذلك اضطرّوا إلى تعيينه، على الرغم من أنّه ليس من أعضاء الحزب، كما وأنّ الذي لا يقسم الولاء للحزب، يُطرَد، يقول الراوي واصفًا حالة جان:

"تحاشى اصطدامه مع حزبيّين، حاولوا استفزازه أكثر من مرّة، لم يجد فرع الحزب معلّمي لغة فرنسيّة حزبيّين، بعد هجرة الأساتذة المرموقين، وفصل البقيّة بحجّة عدم الولاء، في حملة تطهير، لم تترك في المدارس والجامعات إلّا الحزبيّين، [...] يزعقون طوال اليوم بولائهم، يتفنّنون بأساليب المزاودة وادّعاء القرابة بضبّاط أجهزة الأمن". (م.ن، 44)

فهذا واقع التعيينات في بلد لا يعرف الحرّيّة ولا المهنيّة، حتّى في أقدس مهنة، مهنة التعليم؛ لذلك هذه سلطة ديستوبيّة، تمثّل القمع والفوضى والفساد، فلا الشهادة الجامعيّة ولا المهنيّة، ستكون من معايير التعيين أو العمل.

إنّ الولاء في حلب يلزم الناس على الخروج للرقص والغناء في مسيرات الحزب، كما ووصف الراوي زملاء جان المجبورين بالدبكة في مَسيرات الحزب، حيث يقول: "وصف مشهد زملائه الأساتذة يدبكون في مسيرات الحزب الإجباريّة، تحدّث بإسهاب عن عاره الشخصيّ؛ لأنّه كان شاهدًا لحظة سيتناساها الجميع، ليستطيع النظر في عيون البعض، بعد خمسين سنة". (م.ن، 49).

إنّ الفساد التعامليّ والطاعة العمياء للقائد من مكوّنات الديستوبيا، الأمر الذي نجده في حلب، حتّى مع طبقة المتعلّمين، كما وأنّ التحقيق والمماطلة معه على أثر ذلك لم يكن سهلًا، فيقول الراوي:

> "لم يكن سهلًا انتظاره التحقيق، لم يتأخّر رقيب من المخابرات العسكريّة في قرع بابه صباحًا، اصطحبه إلى فرع السريان في سيّارة قديمة، أَجْلَسه في ممرّ بارد وطلب منه الانتظار [...] قضى نهاره كاملًا في انتظار التحقيق، وقبل منتصف الليل بدقائق أخبره الرقيب نفسه، بأنّ عليه العودة غدًا في الثامنة صباحًا". (م.ن، 55)

في ما سبق وصفٌ لأساليب تعامُل أجهزة التحقيق مع من لا يدين بالولاء للسلطة، وهذا نهج متَّبع للإذلال والمماطلة، كي يتعلّم القاصي والداني درسًا؛ كأنْ يبقى كلَّ عمره وفيًّا للحزب، وإلّا فالعقاب شديد. إنّ السلطة الديستوبيّة لا تكتفي بأعضاء الحزب ليخرجوا في مسيرات التأييد، إذ يُلزَم الطلبة من المدارس والجامعات في مثل هذه الشعائر الحزبيّة؛ كي يغنّوا للحزب والقائد بغية إغلاق فم كلّ معارض، يقول الراوي:

> "يُخرِجون الطلّاب من قاعات الدروس، ويقودونهم في مناسبات الحزب بمسيرات تأييد تنتهي بكتابة رسالة بالدم، وإرسالها إلى القائد المسترخي في قصره بعد إسكات أيِّ صوت معارِض، وتدمير مدينة حماة واعتقال عشرات الآلاف من طلبة الجامعات اليساريّين والمتديّنين". (م.ن، 71)

لقد تعرّضت مدينة حلب لضربات، يقول الراوي عن حلب: "مدينة عوقبت عبر التاريخ من قبل حكّامها، فعاقبت أبناءها العباقرة". (م.ن، 169) بدل استغلال عقول هذه الطبقة المتعلّمة التي تسعى السلطة إلى طَمْسها ومعاقبتها، ممّا كان له الأثر في زيادة كراهيّة هذه الطبقة للنظام.

يموت الرئيس ويصل ابنه الحكم، فتُرى نفس المشاهد الحزبيّة والاحتفالات بالقائد الجديد في الشوارع، كما ويُجبَر الناس للخروج بالتهليل والاحتفال بمن ذلّهم طيلة العمر، يقول الراوي :

> "في استفتاء الرئاسة الجديد عام 2000، عادت إلى حياتنا الصور نفسها. خرج الحزبيّون مستعيدين سيرةً عمرها أكثر من ثلاثين عامًا، نشروا الذلّ نفسه في كلّ مكان من البلاد، أطبّاء ومحامون وصحافيّون وتجّار ونوّاب وطلّاب جامعات ومدارس يجري إجبارهم جميعًا على الرقص في دبكات وسط زعيق مكبّرات صوت رديئة". (م.ن، 232

علاقة قاسية بين النظام والشعب:

إنّ العلاقة بين النظام والشعب مبنيّة على الريبة والشكّ، فهي علاقة متوتّرة يسيطر عليها شعور الشعب بالخوف من النظام من جهة، ومن جهة أخرى شعور النظام بالغطرسة؛ كي لا يسمح لهذا الشعب أن يسقطه. هذه المشاعر الّتي كانت لدى كلٍّ من الطرفين أدّت إلى كراهية كلّ طرف للآخر، وهذا ما يؤكّده الراوي عن أمّه بقوله:"[...] تقنع نفسها أنّ العيش في حياة موازِيَة ليس سيّئًا، تكمل: ليس بالضرورة أن تكون صديقًا لأعدائك" (م.ن، 18). إنّ عيشة المواطنين موازيةٌ لقوّة الحاكم، وتحت وطأة ضرباته، والمعنى من جملتها الأخيرة أنّ هذا الحاكم هو عدوّ شعبِهِ، ولا يشترط بالشعب أن يكون صديقًا له. يصف الراوي حياته بالحزينة، لكونه قد عاش مع أسرته موازيًا للحزب، ولم تُبْنَ جسور المحبّة بينهم، فيقول: "فكّرت كثيرًا بألم حياتي التي ارتبطت بانقلاب الحزب واستلامه السلطة، عشنا حياةً موازيةً طوال عمرنا ولم نتلاقَ" (م.ن، 116). إنّ الغالبيّة العظمى من الشعب تكره السلطة لكونها ظالمةً، وهذا ما أكّده الراوي:

> "أكثر من تسعين بالمائة من السوريّين عاشوا حياةً موازيةً مع الحزب والنظام، الذي حكم بكلّ هذا البطش ولم يلتقوا، انقسمت البلد إلى ضفّتَين، على الضفّة الأولى

مرتزقة لا يعرفون شيئًا عن الضفّة الأخرى، التي تتناسل فيها الحياة، تجري بهدوء وبطء وتعرف كلّ شيء عن ضفّة أهل النظام". (م.ن، 116)

إنّ هذه النسبة العالية من السكّان الذين لا تتلاقى معتقداتهم مع مبادئ النظام، تشير إلى حجم الهوّة بين الطرفين، كذلك إلى أنّ هذا الحاكم يسيطر بالقوّة على الغالبيّة العظمى من السكّان؛ لأنّها معارِضة لوجوده.

الانفراد بالسلطة:

يرزح الشعب السوريّ تحت وطأة حاكم مستبِدّ، يُهَيْمن على جميع مؤسّسات الدولة، من حكومة ووزراء وقيادة جيش، وحتّى القضاة، هو من يُدير عملهم، ويحاكمهم بدل أن يحاكموه، كما وأنّ هذه الدولة، لا تؤمن بالتعدّديّة الحزبيّة، فيحكمها الحزب الواحد، وهو حزب البعث؛ لذا لا أحزاب سياسيّة، ولا معارضة في البلاد، ومن يعارض يسجن أو يُصفّى. هذا مثال آخر للمدينة الفاسدة، والتي لا عدل فيها، فالحاكم هو القاضي والجلّاد، وهذا يؤكّد ما جاء في تعريف المدينة الفاسدة. فضلًا عن ذلك، ينفردَ الرئيس في سوريا بالسلطة، فيمنع الحوارات السياسيّة ويلغي التعدّديّة الحزبيّة، حيث يقول الراوي:

"اِحتفظ الحزب وحده بحقّ قيادة البلاد، التي بدأت تتكيّف مع قانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائيّة، الرئيس الذي لم تصدّق أمّي في حزيران 2000 أنّه استأثر لنفسه بكلّ المناصب الحسّاسة، من رئاسة الجمهوريّة إلى قيادة الحزب الحاكم وقيادة الجيش، وحقّ تعيين قضاة المحكمة الدستوريّة، وتسمية رئيس الحكومة وحلّ البرلمان". (م.ن، 19-20)

إنّ هذه السلطة لا تؤمن بالتعدّديّة، فلا وجود لأحزاب غير حزب البعث، وإذا انتمى شخص لحزب آخر فمصيره السجن أو الموت، وهذا ما حدث مع شخصيّة جعفر. يقول الراوي: "جعفر كان ابن مهندس كرديّ قضى أكثر من خمسة عشر عامًا في السجن لانتمائه للحزب الشيوعيّ". (م.ن، 190)

أحد مكوّنات الديستوبيا التفرّد بالسلطة بين الرئيس وأولاده، وهذا ما حدث في سوريا، فما أن أعلن عن وفاة الرئيس حتّى رُتّبَ أمر اختيار ابنه مكانه. معنى ذلك ترسيخ الخوف والشدّة على الشعب، فعن رشيد يقول الراوي:

"كاد يشعر بالاختناق بعد انتهاء أربعين الرئيس وتنصيب ابنه رئيسًا جديدًا، فَكَّر بأنّه سيقضي حياته خائفًا ويائسًا". (م.ن، 231)

الخوف والرعب من السلطة:

الرعب الشديد مسيطر في أرجاء حلب بسبب نظام قاس لا يعرف الرحمة، يتدرّب لسلب المواطن حرّيّته، بل ليعذّبه أصناف العذاب إذا وقع بين يديه، لقد وصف الراوي هذه الحالات القاسية بقوله:

"سبعة أيّام قضاها جان في ممرّات فرع الأمن العسكريّ، جعلته يكتشف بأنَّ ما قالته إيميلي عن الحياة هنا حكايات تؤلّفها فتاة عزباء خيالها ضحلٌ، لا تعرف شيئًا عن سجناء سياسيّين معلّقين بخطّافات كخراف في مسلخ". (م.ن، 55)

إنّ السلطة الديستوبيّة مخيفة، ولها رجالها، تدبّ الخوف في صفوف الناس، لدرجة خوف المعلم عندما احتاج إلى إرسال رسالة، فكانَ يكتبها بالفرنسيّة، كي لا يفهمها رجال الحزب؛ لاقتناعه بأنّها قبل أن تصل لصاحبها ستُفْتَح ويُقْرَأ محتواها. لذلك سيطر الخوف من السلطة على جان، حتّى ولو كتب رسالته بلغة فرنسيَّة، فقد كان خائفًا من الاستدعاء للتحقيق، يقول عنه الراوي:"[...]التي رغم كتابتها بلغة فرنسيَّة يبقى خائفًا ومنتظِرًا استدعاءه للتحقيق معه، لا يطمئن إلّا حين يصل جواب كوليت ببرقيّة هاتفيّة، تخبره باستلام الرسالة غير مفتوحة". (م.ن، 48)

لم يُرحَم المعتقلون في سجون حلب، حيثُ كانوا يواجهون شتّى أنواع التعذيب، وقد شبّههم الراوي بالخراف التي تُسلَخ دون هوادة، وفوق كلّ هذا تمدح الصحف الحزب والقائد. هذا الواقع المأساويّ الذي يعيشه المواطن السوريّ هو ما يجعله خائفًا طوال عمره لا يفكّر إلّا بالنجاة من وحشيّة هذا النظام لما يسمعه من السجناء، ويؤدّي به إلى زيادة الفجوة بينه وبين

النظام، ويعيش كئيبًا دون أيِّ تقدُّم، ممّا ينعكس في النهاية على الجوّ العامّ في المدينة، فتصبح حلب مدينةَ أشباح، ويحذو حذوها باقي المدن السوريّة.

فساد رجال المخابرات:

عمّ الفساد في صفوف رجال المخابرات بسبب سيطرتهم المطلقة في سوريا، يمشون متكبّرين بين الناس، يضربون من يريدون، ويحقّقون مع من يشاؤون، الخوف منهم مهيمنٌ لا رحمة عندهم، يصل ظلم هذه السلطة إلى أعضائه، فعند عودة سوسن من دبيّ حقّقوا معها، وفي هذا المشهد يظهر بوضوح مدى الفساد وتسلّط المحقّقين:

> [...]"وطلب منها كتابة تقرير عن تفاصيل تعرفها عن حياة حبيب الموصليّ[...] وأردف أنّه روتين ضروريّ للحصول على العفو الرئاسيّ، والعودة إلى النضال في صفوف الحزب[...] كتبت ما طُلِب منها وخرجت بهدوء من الفرع. في اللقاء الأخير طلبت من المحقّق إغلاق هذا التحقيق الذي لا معنى له، أعطاها أرقامه وعرض عليها العمل مع الفرع كمخبرة ذات امتيازات". (م.ن، 66)

تظهر معالم المدينة الفاسدة بوضوح في الأجهزة الأمنيّة لحلب، حيث تُكتَب التقارير وفق إخلاص الناس للحزب، كما وأنّ ضبّاط المخابرات يهتمّون بإشباع غرائزهم من المخبرات، أمثال سوسن التي كانت تكتب التقارير. ومن العلامات الأخرى على فساد رجال المخابرات هي الاتّهام وعدم إمكانيّة الحماية الشخصيّة، وسيطرة المخابرات على الجوّ العامّ، وهذا ما كان يفعله رجال التحقيق مع الفتيات في المدارس، فيقول الراوي: "ترى سيّارات المخابرات تطوّق المدرسة، وتعتقل طالبةً للتحقيق في مضمون تقاريرها، لساعات طويلة تجلس الطالبة في غرف المحقّقين، ترتجف خوفًا، يواجهها المحقّقون باتّهامات لا تجد سوى البكاء سبيلًا للدفاع عن نفسها". (م.ن، 133)

إنّ الشعور بالخيبة والعار وعدم الأمان هي علامات اليأس المتجذّرة في المجتمع الديستوبيّ، وهذا ما نجده عند جان عندما أيقن أنّ هذه المدينة تحت سيطرة رجال لا همّ عندهم سوى الدبكة والفساد، يقول الراوي:

"أصبحت حلب مدينةً مستباحةً لخوف لم يتوقّف، مدينةً معاقبةً، تئنّ تحت رغبات رجال مخابرات ومسؤولين فاسدين لا يتقنون شيئًا إلّا الولاء وعقد حلقات الدبكة في استفتاءات الرئيس التي جعلت جان يكتب لابنه بأنّه شعر لأوّل مرّة في حياته بعار لا حدود له". (م.ن، 143)

إنّ الفساد والرشاوي من مكوّنات الديستوبيا، وهذا ما كان مسيطرًا في حلب، فقد تدخّلت الوسائط عند القادة؛ كي لا تُفصَل سوسن بسبب عدم توقيعها على الانتساب للحزب، فيقول الراوي: "وتدخل لدى القيادة أكثر من مرّة كي لا تُفْصَل من المدرسة بعد رفضها الصريح التوقيع على طلب انتساب إلى الحزب". (م.ن، 145)

وحشيّة رجال الأمن في حلب لا ترحم أحدًا، فقد دخلوا إلى محلّ بيع مجوهرات قد خبّأ صاحبه أحد رجال الإخوان المسلمين، اعتدوا عليه واقتادوه للاعتقال، وبعد خروجه هاجر. يصف الراوي هذا المشهد بألم:

"قرّر صاحبه الهجرة، وبيع موجودات محلّه خلال يوم واحِد بعد اعتداء عناصر مخابرات عليه، بإخفاء رجل مطلوب من جماعة الإخوان المسلمين، دخلوا إلى المحلّ، قلبوا أواني الفضّة وسيوف الذهب المعتّق المنقوشة [...] داسوا كلّ شيء واصطحبوه معهم إلى الفرع". (م.ن، 72)

مصادرة الحريّات:

إنّ كبت حرّيّة التعبير والتفكير من سمات المدينة الديستوبيّة؛ في حلب لا يُسمَح للمواطن أن يقول إنّ سعر هذا الغرض غال، فهذا يعبّر عن عدم الرضا من السلطة، كما لا يُسمَح للمواطن أن يفكّر بالموت، فإذا قال إنّه يرغب بالموت، معنى ذلك أنّه لا يريد العيش مع هذا النظام، فهنا سياسة الاستسلام المطلَق، ويصف الراوي ذلك: "كلّ الناس تخاف الانزلاق بأيّة كلمة سهوًا عن وضع البلاد والغلاء والعنف الذي بدا واضحًا. إذا قُلْت البقدونس غال، فهذا يعني للمخبرين أنّك تشكّك من سياسة الحزب، وإذا قلت بأنّك تفكّر بالموت، فهذا يعني أنّك لا تحبّ الحياة تحت وطأة أحكام الحزب". (م.ن، 153) ما سبق إثبات على وحشيّة هذا النظام الذي يطبِق

قبضته على المواطنين، لا يسمح لهم بالتعبير، ولا يحقّ لهم إبداء رأيهم، الأمر الذي يخلق جوًّا من الاختناق العامّ، فيجعل مدينة حلب سجنًا كبيرًا لكمّ الأفواه.

تتحدّث أمّ جان عن زوجها عيسى عبد المسيح، فتقول: "إنّ عيسى عبد المسيح اختار موته؛ كي لا يرى العسكر يكمّمون الأفواه بقانون الطوارئ والمحاكم الاستثنائيّة، يغيّرون الدستور، ويصادرون في مادّته الثامنة كلّ السلطات، التي تنصّ صراحةً على أنّ حزب البعث، هو الحزب القائد للدولة والمجتمع" (م.ن، 49) وفي هذا إثبات واضِح لسلطة القمع، حيث كمّ الأفواه، حيثُ لا تعبير عن الرأي، بل فرض قوانين الطوارئ في المدينة، والأصعب من ذلك، تغيير الدستور والقوانين، وفق هواهم، دون الرجوع للشعب، وتحويل حزب البعث إلى الحزب القائد لكلّ مكوّنات الدولة والمجتمع.

إعلام السلطة الفاسد:

إحدى علامات الديستوبيا الجهل، وهذا ما ترمي إليه السلطة الديستوبيّة، فقد استعملت وسائل الاعلام منصّةً لتمجيد القائد والحزب، وإسماع الناس صوتًا واحِدًا. يوصف هذا الواقع من خلال المشهد التالي:"عن أمّه يقول الراوي لا ترفع نظرها عن نشرة الأخبار التي قد تستمرّ ثلاث ساعات، يستعرض فيها المذيع نشاطات الرئيس وأقواله المأثورة، كما يستعرض بتفخيم زائد توجيهاته المقدّسة للمحافظين والوزراء وطبعًا عطاياه لشعبه. [...] تراقِب الخوف الذي ينمو كلَّ يوم داخلها، تتماهى مع صور الرئيس، تقنع نفسها أنّها تحبّه ولم تكرهه في حياتها، متجاهلةً وصفها له ولرفاقه يوم انقلابهم بمجموعة تفصح عيونهم عن عدم الثقة، ولا يميّزون بين عطر السوسن ورائحة اللفت المخلَّل". (م.ن، 117)

يسيطر النظام على كلّ مرافق الدولة؛ لذا يجنّد الأعلام كبوق لمدحه وذكر خدماته، ويستعرض إنجازاته، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، يُظهر قوّة هذا النظام العسكريّة؛ كي يحبط كلّ محاولة للانقلاب عليه، ولا يتيح للمواطن استخدام هذا الإعلام للتعبير عن رأيه، بل كلّ رجال الأعلام يسيرون وفق أهواء الحاكم. لا يُسمع صوت معارِض للنظام، فالشعب لا يسمع إلّا صوتًا واحدًا.

الإجمال والاستنتاجات

طرحَت هذه الدراسة عناصر الديستوبيا في السلطة في حلب، حيث نشرت الخوف في حلب، أرغمت الناس على المشاركة في احتفالات الحزب، أجبرت السكّان على قبول كلّ ما يقوله الرئيس، وأفقرت الشعب من خلال سرقة مقدّراته وأملاكه ليعمّ الفساد في كلّ أجنحة السلطة، فلا تعيين لمن لا يقسم الولاء للحزب، بل يُلاحق ويجرّ إلى غياهب التحقيق والسجون. كلّ هذا أدّى إلى عيش الناس في حياة موازية لنظام لم يحاول أن يلتقي معهم، أو أن يفهم ويلبّي متطلّباتهم، هكذا عاش الناس تحت وطأة الخوف والذلّ مدّة أربعين سنة، لم يجرؤ أحد أن يتفوّه بكلمة ضدّ النظام. في هذه المدينة الحزينة خيّم الصمت والفقر والخذلان، فقُمِع أهلُها بشتّى أنواع التعذيب، ناهيك عن التعذيب في السجون، وقد شبّه الراوي السجناء بالخراف المعلّقة بالكلاليب، أمّا أولئك الّذين هلّلوا للنظام فوصفهم بالكلاب التي تُقبّل الحذاء، وما هذا التعبير إلّا نتاج شدّة معاناة قائله.

لقد خيّم العار في هذه المدينة بسبب السلطة الديستوبيّة، فلا احترام للناس ولا حرّيّة للتعبير، بل سياسة كمّ الأفواه، فقد وصل حدّ القمع بأن لا يتجرّأ الانسان من التعبير عن موقفه من الرئيس، حتّى بعد مماته، لشدّة الخوف الذي عشّش في قلوب الناس، فلم تعرف هذه السلطة مبدأ الانتخابات، فقد تسلّم الابن الحكم بعد أبيه باستفتاء شكليّ عام 2000، وفي هذا النهج يتّبعون التوريث في نقل الحكم، وينتهجون نهج الأب نفسه بتعاملهم مع الشعب، لذلك أصبحت حلب مدينة أشباح ورعب، مدينة لا يحلو بها العيش؛ لذلك لم نتفاجأ بتفكير نزار (خال الراوي) بالهجرة.

توصّلت الدراسة إلى النتائج التالية:

- تعتبر رواية خليفة *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة* نموذجًا نصّيًّا للأدب الديستوبيّ، لأنّها شملت كلّ مركّبات الديستوبيا، وقد تمثّل ذلك باستعراض همجيّة السلطة الحاكمة، وطرق قمعها للمواطنين، وسيطرة الرئيس على كلّ مفاتيح الدولة. كما وظهرت الديستوبيا بحلب بصورة جليّة نتيجة الفساد الأخلاقيّ المنتشر بالمدينة، لا قيود أدبيّة تسودها ولا قوانين

تضبطها، كما وتمثّلت الديستوبيا بالشخصيّات الديستوبيّة التي تحلّل ما تشاء، وتفعل ما تشاء، دون رقيب أو حسيب، تسرق وتغتصب دون عقاب، وتتعمّق الديستوبيا بالزمكان الديستوبيّ في الرواية، حيثُ أصبحت حلب مدينة الموت مع سنوات حكم حزب البعث التي بدأت بانقلاب عام 1963 واستمرّ إلى يومنا هذا.

نجح خليفة في تصوير الديستوبيا في حلب بصورة دقيقة، من خلال هذا العمل، فقد عبّرت الرواية عن وضع سياسيّ واجتماعيّ مأزوم تعيشه سوريا، وذلك بعرضها الشخصيّات على أنواعها. خلال البحث والتحليل، حُدِّدَت درجة الديستوبيا لكلّ شخصيّة، كما وتعرَّضتُ للفضاء المكانيّ، وتم تصنيف الأماكن إلى أماكن مفتوحة ومغلقة لإعطاء صورة شاملة للمكان الديستوبيّ.

في فضائها الزمكانيّ، عبّرت هذا الرواية عن تاريخ حلب والأزمنة المتعاقبة فيها، والتي كانت مهد الحضارات، فأصبحت خرابًا يسيطر عليها رجال الأمن. عرض خليفة من خلالها حقائق الخراب في كلّ المجالات، فهي رواية عن ورطة الحياة بكلّ معانيها. فقد كتب خليفة عن كلّ ما هو مسكوت عنه في سوريا، عن تشتّت المجتمع السوريّ متمثِّلًا بتشتّت الأسرة الحلبيّة التي تدور حولها أحداث الرواية كأنموذج. أمّا اللغة التي تحدّث فيها خليفة في الرواية، يغلب عليها الحزن؛ نتيجة للواقع المؤلم الذي عاشه المجتمع السوريّ.

على الجملة، رواية **لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة** نموذجٌ لخراب الحياة في العالم العربيّ، تحت حكم أنظمة أحلّت المحظور، وسلبت الإنسان حقوقه وحرّيّته، فما حلب إلّا صورة مصغّرة عن العالم العربيّ.

المصادر والمراجع

المراجع باللغة العربية

باكو، تييري. *طوبيا والطوباويون*. ترجمة خليل أحمد. بيروت: دار الفارابي، 2008.

برجكاني، فاطمة. «الديستوبيا (المدينة الفاسدة) في الرواية العربية المعاصرة: قراءة في رواية أورويل في الضاحية الجنوبيّة لفوزي ذبيان». إضاءات نقدية (مجلّة فصليّة محكّمة)، آذار 2018، 131–149.

بروكا، أليكسي. «أدب المدينة الفاسدة: سيمفونيات العالم الجديد». ترجمة نبيل موميد. *مجلّة الدوحة*، عدد 148 (فبراير 2020): 36–37.

بواردي، باسيليوس. «عن فكر الانتهاك والاختراق في الطلبية C345 للكاتبة شيخة حليوى». في: *بين المسايرة والمغايرة: دراسات محكّمة في أدب المرأة الفلسطينية*، تحرير محمد حمد. باقة الغربيّة: مجمع القاسميّ للغة العربيّة، 2019.

الجباوي، أحمد. «أدب المدينة الفاسدة: ديستوبيا». 22 آب 2019. https://ahmadaljbawi.com/أدب-المدينة-الفاسدة-ديستوبيا/

حسن، سوسن. «بين الديستوبيا واليوتوبيا السوريّة». *العربيّ الجديد*، *4* تشرين الثاني 2017. تم الاسترداد في 16.9.2024. https://diffah.alaraby.co.uk

الحسنى، أحمد. «ثنائية (اليوتوبيا–الديستوبيا) في الرواية العراقيّة: دراسة سيميائيّة». *مجلّة الآداب*. بغداد: جامعة بغداد، كلّيّة الآداب، 2015، 135–154.

خليفة، خالد. *لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة*. بيروت: دار الآداب، 2013.

خليفة، عبد الرحيم. «خالد خليفة في روايته لا سكاكين في مطابخ هذه المدينة: تاريخ نصف قرن من حياة السوريّين». 24 شباط 2024. https://arabiansforum.net/archives/452

دراج، فيصل. «تغير الأزمنة ومدينة الفساد». مجلّة الدوحة، عدد 148 (فبراير 2020): 22–23.

عاصم، داليا. «المشهد الأدبيّ ما بعد الربيع العربيّ: كتّاب ونقّاد مصريّون، ستّة أعوام ليست كافيةً لاختمار أدب الثورة». *الشرق الأوسط*، 26 كانون الثاني 2017. https://aawsat.com

عبده، دينا. «خصائص الديستوبيا في الأدب الروسيّ: رواية نحن لزاميّاتين نموذجًا». شباط 2018. https://search.mandumah.com/record/865829

عقيل، حسام. «الرواية السوريّة: ثمانية أعوام من الاكتواء بنيران الحرب». 14 آذار 2019. https://hibrpress.com

فخري، أسعد. «الرواية السوريّة والثورة». 26 شباط 2015. تم الاسترداد في 4.10.2022. http://syrianprints.org/ar/issues/4532

فرغلي، محمود. «ديستوبيا الواقع العربيّ». *مجلّة الدوحة، عدد 148* (فبراير 2020): 38–40.

ناظميان، هومن. «الديستوبيا في الرواية العربيّة المعاصرة: قراءة في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق». في: المؤتمر الدوليّ الثامن للغة العربيّة. دبي، 2019، 160–164.

وقاص، يوسف. «محاصرون في منزل مرايا». *مجلّة الدوحة، عدد 148* (فبراير 2020): 33–34.

المراجع باللغة الإنجليزيّة

Dziekan, Marek. “Egypt: Revolution 2011/2025. Dystopia, Utopia, and Political Fiction in Mustafa Al-Husayni's Novel 2025 An-Nida Al-Akhir.” International Studies: Interdisciplinary Political and Cultural Journal 21, no. 1 (2018): 99–111.

Krishan, Kumar. Utopia and Anti-Utopia in Modern Times. Oxford: Basil Blackwell, 1987.

Pospíšil, Jiří. The Historical Development of Dystopian Literature. Olomouc: Palacký University Olomouc, 2016.

Richter, Peter E. “Utopia/Dystopia?” In Work, Workers & Work Organization: A View from Social Work, 1–28. Cambridge, MA: Schenkman Publishing, 1975.

Seeger, Sebastian. “Dystopian Literature and the Sociological Imagination.” Thesis Eleven 155, no. 1 (2019): 45–63.